

تمهيد: يؤكد أن الباحثون أن كل الشعوب قد عرفت مبدأ القص بأشكال مختلفة، والعرب ليسوا استثناء، فقد عرفوا الأخبار والوقائع والأساطير القديمة في الجاهلية، والقصص القرآني في الإسلام، وانتشرت القصص على أيدي الرواة في العصر الأموي، وقد تطورت القصة في العصر العباسي تطوراً ملحوظاً، إذ بدأت طائفة كبيرة من الكتاب ينقلون القصص الأعجمية إلى العربية من أشهرها «كليلة و دمنة» لعبدالله بن المقفع و«ألف ليلة و ليلة» من أصل هندي أو إيراني. وألف العرب أنفسهم قصصاً منها «البخلاء» للجاحظ، ورسالة «التوابع و الزوابع» لابن شهيد الأندلسي و هي قصة خيالية موضوعها لقاءات مع شياطين الشعراء، ثم «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، و هي قصة خيالية موضوعها سفر خيالي إلى الجنة و الجحيم، لقي فيه أبو العلاء شعراء الجنة و الجحيم، وانتقد من خلاله الشعر في العصر الجاهلي و الإسلامي، ويدخل في التراث القصصي كذلك السير و المغازي و أدب الرحلات وغيرها.

والمقامات أقرب الأنواع القصصية في الأدب العربي إلى القصة الفنية الحديثة، و اعتبرها بعض المستشرقين أول مظهر للقصة العربية، و هي قصة قصيرة تدور حول مغامرات بطل موهوم يرويها راوٍ معين، غايتها تعليمية؛ و قد أجمع المؤرخون علي أن بديع الزمان هو مبدع المقامات، و من أعلامها بعده هو الحريري.

لكن الباحثين اختلفوا في نشأة القصة العربية الحديثة، فمنهم من يعزوها إلى هذا التراث القصصي و يعتبرها امتداداً له، و منهم من يعتبرها نتاج التأثير بالأدب القصصي الغربي الحديث.

يرى الدارسون أن الأدب القصصي الحديث عند العرب مر بعدة مراحل قبل أن تتضح معالمه، وهي:

أ- مرحلة التقليد و التعريب (1850-1914).

ب- مرحلة النشأة (1914-1939).

أ. القصة العربية في مرحلة التقليد و التعريب

بدأت القصة الحديثة في شكل محاولات لتقليد و إحياء الأشكال القصصية القديمة كالترجم و المقامات، و أبرز مثال على ذلك "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي (1900) حيث يبدو فيه التأثير العربي واضحاً فيها من حيث العناية بالأسلوب و الأحداث التي تحدث للبطل الذي يتصل بشخصيات متعددة، كما أن الأثر الغربي أيضاً يبدو فيه جلياً من حيث تنوع المناظر، و تسلسل الحكاية، و بعض ملامح التحليل النفسي، و منها قصة "علم الدين" لعلي مبارك، و يدور موضوعها حول عالم متتور الفكر اسمه علم الدين يلتقي بسائح إنجليزي، و يذهب معه إلى أوروبا، فيقارنان بين العادات و التقاليد الشرقية و الغربية مرجحين تارة هذا على ذلك، و على العكس، و تأثرها بأسلوب المقامة واضح. و منها

"الساق علي الساق" لأحمد فارس الشدياق، وهي شبيهة بالتراجم الذاتية تحدّث فيها الشدياق عن مراحل حياته و أسفاره على أسلوب المقامات، وغايته إبراز مقدرته على استعمال الكلمات الغربية، وذكر محاسن النساء و مثالبهن.

ساد التأثير بأسلوب المقامة طيلة عصر النهضة، ذلك أن الكُتّاب يحاولون بناء الأسس القصصية الجديدة على أساليب القصة القديمة لحرصهم على عدم ضياع تراثهم («عذراء الهند» لأحمد شوقي، "ليالي سطيح» لحافظ إبراهيم..)

وفي أواخر القرن 19م ظهرت موجة جديدة في الأدب القصصي الحديث، وذلك إثر ترجمة القصص الغربية، وقد بدأت هذه الموجة على يد اللبنانيين؛ منهم سليم البستاني الذي اعتبر الرائد الأول لهذا التيار، فقد أُلّف في فترة قصيرة فيما بين 1848 إلى 1884 عددا كبيرا من القصص تراوحت موضوعاتها بين التاريخ والاجتماع، و نشرها في مجلة «الجنان»؛ و من قصصه «الهيام في جنان الشام (1870)»، موضوعها قصة بين رجل و فتاة يلتقيان تارة و يفترقان تارة أخرى؛ «زنوبيا (1871)»، موضوعها تذكّار تاريخي لموجبات الصراع بين ملكة تدمر و بين الرومان؛ «بدور (1872)»، موضوعها حول أميرة أموية عشقت عبدالرحمن الداخل؛ «أسماء (1873)»، موضوعها قصة رجال أحبّوا فتاة، و كلّ منهم يحاول أن يجلبها إليه.. الخ، وبما أن سليم البستاني كان صحفياً فقد اهتمّ بتناول مختلف الموضوعات في قصصه من تاريخ وجغرافيا و اجتماع و فلسفة و رحلات و... ومال بحكم عمله اتجه نحو تبسيط اللغة و الاقتراب من أسلوب اللغة الدارجة مما أوقعه في الضعف و الركافة أحيانا.

ويجدر بالذكر أن للصحف دوراً بارزاً في نشوء القصة العربية و اتساع دائرتها فقد ظهر في فترة قصيرة عدد كبير من الصحف والمجلات كصحيفة «الأخبار»، «وادي النيل»، «البشير»، «الأهرام»، «المقتطف»، «الهلال» و... وقد خصّص كل منها قسماً للقصص الموضوعية و المترجمة، أو مجلات نصف شهرية اقتصر على نشر القصة و الرواية، منها «سلسلة الفكاهات في أطايب الروايات»، «حديقة الأدب»، «مسامرات الشعب»، «الروايات الجديدة» و... .

ومن أعلام القصة و الرواية في هذه المرحلة فرح أنطوان (المدن الثلاث، الوحش الوحش الوحش، أورشليم الجديدة)، نقولا حداد (النص الشريف، كله نصيب، حواء الجديدة، آدم الجديد)، يعقوب صروف (فتاة مصر، أمير لبنان، فتاة الفيوم)، لبيبة هاشم (قلب الرجل)، طاهر حقي (عذراء دنشواي)، المنفلوطي (العبرات و النظرات) و... .

والملاحظ على القصة و الرواية العربية في هذه المرحلة أن أعمال هؤلاء الكُتّاب كانت في أغلبها تقليد للقصة الغربية، يغلب عليها السرد التاريخي أو الاجتماعي دون ارتباط بمذهب فني واضح، و لم يكن أحد من هؤلاء الكُتّاب قاصاً متخصصاً، بل كانت القصة فنّاً و عملاً ثانوياً بالنسبة

إليهم، و بالنسبة إلى المهنة التي يعملونها، و هو العمل الصحفي، و لهذا فإن العمل القصصي في هذه المرحلة ينفصه التخصص و فنية العمل، و هو عند هؤلاء تقليد للاتجاهات الغربية، و ليس منبعثاً انبعثاً حقيقاً من البيئة العربية.

ولكن هناك ظاهرة فنية يجدر الوقوف عندها، و هي الجهود الروائية للذين مضوا إلى المهجر، فأتيح لهم الإطلاع علي النماذج القصصية الغربية بأكمل وجه، فتأثروا بها فنضجت أعمالهم حيث تختلف عن النماذج القصصية في البلد العربي، فلا شك أن إنتاجات جبران من القصة و الرواية كـ«عرائس المروج (1906) و«الأرواح التمردة (1908)»، و «العواصف (1910)»، و «الأجنحة المتكسرة (1912)» و... كان لها طعم جديد، إذ يبدو فيها روح التمرد علي عوامل الجمود و موانع التطور.

ب- مرحلة نشأة الأدب القصصي العربي الحديث (1914-1939)

إن فترة ما بين الحربين العالميتين اعتبرت مرحلة تكوين الأدب القصصي و الروائي عند العرب، فالحرب العالمية الأولى و ما تبعها من أحداث و تحولات في تركيب المجتمعات العربية، و من تغيير في القيم و الموازين، و من تطور في الثقافة و السياسة و الوعي القومي و الانتفاضات الوطنية و...، كل هذه خلقت جواً جديداً و ذوقاً مختلفاً عن سابقه، و تطلبت بناءً و أسلوباً جديداً للتعبير عن هذه التحولات الجديدة.

وكما أشرنا سابقاً أن اللبنانيين كانوا من رواد القصة في الفترة الأولى، لكن في هذه الفترة إثر هجرة اللبنانيين إلى مصر و... بسبب الحروب و الفتن الداخلية، انتقلت الريادة إلى أيدي المصريين، و بما أن الجيل الجديد منهم أقبلوا علي العلوم الجديدة و تعرّفوا إلي الثقافة الأوروبية و اطلعوا علي إيديولوجيات التحرر و الاستقلال، شكلوا أحزاب سياسية و منظمات جديدة تهتف بالوعي السياسي و الاجتماعي و التحرر الوطني، كما أسسوا صحفاً تبيّت الاعتراز بالشخصية المصرية و الروح الوطنية في الشعب حرصاً منهم علي إحياء التاريخ المصري القديم لبثّ روح الأمل في الشعب و الخروج من التخلفات التي يحسّون بها عند قياس أنفسهم بالبلدان الأوروبية، لذلك وسّعوا في نشر الصحف و المجالات، و غيروا المناهج و المنظمات التعليمية و نسّقوها حسب المناهج و المنظمات الغربية كما انتقدوا كثيراً من العادات و التقاليد الشعبية التي تمنعهم من الحركة السريعة نحو التقدّم و الرقي.

وهكذا أخذت القصة العربية بعد الحرب العالمية الأولى طابع المحلية و القومية، و بدأت تصوير فئات من المجتمع المصري أو اللبناني أو السوري أو العراقي بغية تحسين المجتمع.

فقد ظهر في مصر كتاب صوّروا مجتمعهم خير تصوير؛ منهم طه حسين الذي له دور هام في إرساء قواعد الفن القصصي، و من أعماله: «الأيام (1929)»، «أديب (1935)» حيث انتقد فيهما القضايا الاجتماعية و التعليمية و التربوية في المجتمع المصري، و «دعاء الكروان (1941)» و... .

ومنهم توفيق الحكيم الذي عني بتصوير الواقع والمشكلات الاجتماعية. و من آثاره: «عودة الروح (1931)»، «يوميات نائب في الأرياف (1937)»، «عصفور من الشرق (1938)». ومنهم محمود تيمور الذي اهتم بقضايا ماوراء الطبيعة و الروحانية الشرقية في رواية «نداء المجهول (1939)»، كما عني بقضايا اجتماعية و نزعات إنسانية في رواية «سلوى في مهب الريح». ومن أعلام آخرين عيسى عبيد «ثريا (1922)»، طاهر لاشين «حواء بلا آدم (1934)»، محمد تيمور.. الخ.

من الظواهر البارزة في هذه المرحلة ظهور اتجاه التحليل النفسي و تبين أثره علي الأدب، وقد حمل لواء هذا الاتجاه العقاد و المازني، ومن آثار المازني: «ابراهيم الكاتب (1931)»، «ابراهيم الثاني»، «عود علي بدء (1943)»، ومن آثار العقاد: رواية «سارة (1938)» التي هي صورة واضحة من منهج العقاد التحليلي.

وقد بدأ الوعي القومي والإحساس بالشخصية الوطنية في البلاد العربية بتأثير من مصر حيث ظهرت لبنان ظهرت قصص و روايات مثل رواية «العمال الصالحون (1927)» لإلياس أبي شبكة حيث تصور فيها انتحار طفل في السابعة من عمره ليتخلص من حياة الشقاء التي تسومه إياها امرأة أبيه. وروايات كرم ملحم «بونا أنطون (1937)»، «صرخة الألم (1939)»، «الشيخ قرير العين (1944)»، «دمعة يزيد»، «صقر قریش»، و قد جمع في رواياته الاتجاه التاريخي والاجتماعي. والذي يجدر ذكره أن القضايا الاجتماعية التي طرحت في أعمال هذه المرحلة طرحت من أجل إيجاد الحلول لها و معالجتها و إصلاحها، كأن شأن الكتاب شأن المصلحين نفسه. و أصبحت الكتابة في هذا الفن عملاً يعتز به صاحبه، يجمع بين الرسالة الاجتماعية و الفنية.

ب.1- نشأة الرواية العربية الحديثة:

حول مصطلح الرواية: يشتمل مصطلح القص في اللغة العربية على معاني التوصيل والسرد/الحكي، وتتبع الأثر، أما نظيره الإنجليزي (fiction) فيشتمل على معاني السرد والتخييل وما يناقض الحقيقة بمعناها المنطقي والرياضي – من نافل القول أن للأدب حقيقته لكنها ليست كحقائق المنطق والعلوم الطبيعية. ويرتبط مصطلح "الرواية" في اللغة العربية بنقل الخبر والتوصيل والحكي والاستظهار والري أي الإمداد بالماء. ولعله بهذا يعني من قدر حاجة الإنسان إلى المعرفة وفضوله الذي لا ينقطع. أما المصطلح الإنجليزي فيشتمل على معنى الجدة والحدثة، ونظيره الفرنسي (roman) يشير إلى "إبداع خيالي نثري، طويل نسبيًا، يقوم على رسم شخصيات، ثم تحليل نفسياتها وأهوائها، وتقصي مصيرها ووصف مغامراتها"، والقص أشمل وأعم من الرواية.

من المعروف أن الرواية كنوع أدبي لم يمتد علي ظهورها أكثر من ثلاثة قرون في الغرب، ولا أكثر من قرن ونصف قرن في العالم العربي. بيد أن هذا الجنس الأدبي ظهر وتطور بفضل قدرته على هضم وتمثل والاستفادة من الفنون والأنواع الأخرى مما يصعب وضع تعريف واحد له. ورد في معجم المصطلحات الأدبية لفتحي إبراهيم أن الرواية: " سرد قصصي نثري، يصور شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأحداث والأفعال والمشاهد، والرواية شكل جديد لم تعرفه العصور الكلاسيكية والوسطى، نشأ مع البواكير الأولى لظهور الطبقة البرجوازية، وما صاحبها من تحرر الفرد من ربة التبعية الشخصية".

و همومها، و ليس من أية قوة مبتعدة خارجة عن ذات هذا الجنس القصصي الحديث. في تعريف مبسط، الرواية: " تجربة أدبية، يعبر عنها بأسلوب النثر سردا وحوارا من خلال تصوير حياة مجموعة أفراد (أو شخصيات) يتحركون في إطار نسق اجتماعي محدد الزمان و المكان، و لها امتداد كمي ومعين، يحدد كونها رواية" (حسين الوادي).

نشأة الرواية العربية الفنية :

" استدرجت قضية أصول الرواية ومصادرها ونشأتها وريادتها، باعتبارها لب السردية العربية الحديثة، آراء كثيرة، منها: ما ينكر على الموروث السردى القديم إمكانية أن يكون أصلا من أصولها، وآخر يراه حضا ترعرعت بذورها في أوساطه، وغيره يؤكد أنه الأب الشرعي لها. وثمة آراء تراها مزيجا من مناهل غربية وعربية، وهناك أخيرا الرأي الشائع الذي يرى أن الرواية مستجلبة من الأدب الغربى (...). الرواية العربية، طبقا لهذا الرأي، في أرقى نماذجها وأشكالها، إنما تنحى غربيا في نوع من المحاكاة المكشوفة لما استحدثت في الرواية الغربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين" (السردية العربية الحديثة، عبد الله إبراهيم، ص5).

يرى الناقد مصطفى عبد الغنى أن ظهور الرواية في الوطن العربي ارتبط بعاملين أحدهما، أثر كل من مصر و لبنان في نشأة هذا الجنس الأدبي سواء في درجة التأثير بالغرب أو التأثير في الأقطار العربية، أما العامل الآخر فهو أن تطور هذا الفن الروائي ارتبط في ظهوره بتطور الاتجاه القومي العربي و نضجه أكثر من أي عامل آخر. فالروايات التي كتبت بدءا من عام 1867 و حتى بداية القرن العشرين ، كانت موزعة بين أسلوب المقامات و لغتها الزخرفية و احتوائها علي كم هائل من المعلومات غير المتجانسة، و بين الوقوع تحت تأثير الروايات الغربية الرديئة و التي كانت حسب اختيار صغار المترجمين، مليئة بالغرائب و الأوهام و غارقة في العاطفة و الخيال.

في فترة لاحقة بدأت الروايات تستعيد من التاريخ بعض أسمائه و رموزه، و تحاول أن تتخذها سبباً أو ستاراً لاستنهاض الهمم و إبراز البطولة و التذكير بالماضي من أجل استعادته، لمواجهة القوى الظالمة والاستعمارية.

اختلف الدارسون في تحديد أول رواية عربية فنية، لكن معظمهم يذهب إلى أنها رواية "زينب" للكاتب المصري محمد حسين هيكل التي ظهرت أولى طبعاتها سنة 1914 تحت عنوان "زينب؛ مناظر وأخلاق ريفية" بقلم "مصري فلاح"، وعن زمن كتابتها يقول الناقد يحيى حقي: "وأخيرا يكتب هيكل هذه القصة بعد تدبر غير قليل وبتمهل محمود، ما بين أبريل 1910 ومارس 1911 وتصحبه في أسفاره بين باريس ولندن وجنيف". لم يحدد هيكل النوع الأدبي لعمله فلم يسمها قصة أو رواية، كما لم ينسبها لنفسه وهو المحامي المشهور ربما خوفا على سمعته المهنية في زمن كان ينظر فيه بازدراء وبغير جدية للقصص فما بالك إن تناولت موضوع الحب. كتبت رواية زينب في ظل الفكر القومي ومن بواعث كتابتها الحنين إلى الوطن والتأثر بالأدب الفرنسي. يقول هيكل: "رايت سلاسة وسهولة وسيلا، ورأيت مع هذا كله قصدا ودقة في التعبير والوصف وبساطة في العبارة لا تؤولي إلا الذين يحبون ما يريدون التعبير عنه أكثر من حبهم ألفاظ عباراتهم، واختلط في نفسي ولعي بهذا الأدب الجديد عندي، بحنيني العظيم إلى وطني".

تتكون رواية "زينب" من ثلاثة فصول ذات أجزاء مرقمة، حيث تبدأ الرواية في الفصل الأول بوصف الطبيعة وقد استيقظت، فيصف زينب وهي تهم بالنهوض، وينتهي الفصل وقد تزوجت زينب وانتقلت من دار أبيها إلى دار زوجها حسن. أما الفصل الثاني فيصف في معظمه حياة حامد وينتهي بسفر إبراهيم. وينتهي الفصل الثالث بموت زينب. والموضوع الأساسي في رواية زينب هو وصف الريف بطبيعته، وعاداته وأخلاقه مع التركيز على موضوع الحب والزواج، وانتقاد التقاليد، وذلك من خلال قصة زينب، الفلاحة التي يتم تزويجها دون رضاها لحسن، وهي تحب شخصا آخر هو إبراهيم الذي يسافر لأداء الخدمة العسكرية، وبالموازاة هناك قصة حامد الذي يقع في حب عزيزة ابنة عمه لكنه لم يظفر بها كما لم يظفر بزینب فتتأزم وضعيته ويختفي من الحياة العامة، أما زينب، فإنها تمرض بمرض السل وتموت في نهاية الرواية، وقبيل موتها توصي أمها بعدم تزويج أختها غصبا، وتحمل أباؤها مسؤولية ما هي فيه. إذن فالرواية تعالج قضية العلاقة بين الرجل والمرأة، والصراع مع العادات والتقاليد، حيث يدعو الكاتب من خلال وصية زينب لترك الحرية للشباب في الحب والزواج. وقد تمت معالجة هذا الموضوع ضمن وصف الريف بمناظره عبر كل فصول السنة، ويصف حياة الفلاحين اليومية بكل تفاصيلها. لكن وصف الريف لا ينسجم في معظم الأحيان مع أحداث القصة. يقول الناقد عبد المحسن طه بدر: "ولما كان جو الرواية في أغلبه حزينا بائسا، فإن وصف الطبيعة في رواية هيكلا لا يتلاءم مع الطابع العام لروايته، ولا يمهد الجو لشخصياته وأحداثه، بل إنه على العكس، يبدو متناقرا مع جو الرواية، وأحداثها، حتى ليبدو أشبه بديكور بهيج لمسرحية محزنة".

تقف رواية زينب في أسلوبها بين الرواية والمقالة، وأسلوب الوصف الأنثروبولوجي، كما تتخللها حوارات بالعامية المصرية.